دراسة في قصص يحيى حقي

جيران القنديل ...

بقلم الدكتور نعيم عطية

من الادباء من يقترن اسمه ببطل أو بطلين من أبطاله فيحظى هذا البطل أو هذان البطلان بكل ما يكال للاديب من مديح ، ويستحوذ هذا البطل او هذان البطلان بكل ما ينظم في الكاتب من قلائد الثناء . على انه قلما لا يكون في مملكة هذا الاديب غير هذا البطل او البطلين، ولكن الحظ الذي يكون للبعض منه أطنان وأطنان قد يبخل مقسم البخوت والارزاق على اخرين حتى بحفنة من نعائمه .

وهذا ما حدث تماما لابطال يحيى حقي ، فقد ظفر ابطال « قنديل أم هاشم » و « البوسطجي » بكل المديح ، بينما قلما امتد حديث النقاد سواء بالثناء او الذم الى غير هؤلاء الابطال .

(١) السلحفاة تطير

ومن ابطال يحيى حقي المركونين في الظل داود افندي بطل قصته « السلحفاة تطير » وربما كان اكبر الظلم واقعا عليه ، فهو زميل وجار لاسماعيل بطل « القنديل » في المجموعة القصصية نفسها التي نشرتها دار المعارف في سلسلة « اقرأ » (العدد ١٨) ولاقت ما تستحقه من نجاح ، فأعادت الدار طبعها للمرة الثالثة . كما أن داود أفندي شخصية جروتسكية تجتذب الحب رغم سخافتها الكبيرة التي تورطت فيها ، وهي تحارب برعونة تثير السخرية والاعجاب دفاعا عن الشرف حتى اخر لحظة . ونتابعه بعين الاستهزاء والاشفاق وهو ينهزم ويتدهور به الحال كل لحظة من لحظات هذه الحرب البيزنطية . هي شخصية من صنف البروفسور تاران شخصية الكاتب الفرنسي المعاصر ارتور اداموف ، ولا تخلو من كل تلك النكهة الحريفه التي لشخوص انطون شيخوف الحبيبة .

في أحد رسوم المصور هونوريه دوميه بمجموعته عن « رجال العدالة » يقول المحامي لموكلته الثكلى التي تذرف دموعها الحارة في أعقابه وهو ينزل درجات سراي المحكمة منتفخ الاوداج : « لا شك انك قد خسرت قضيتك لكنك استمتعت بمرافعتي ! » .

وقصة داود افندي تذكرنا بكل تلك المجموعة من الرسوم التي ابتدعتها ريشة ذلك المصور العملاق في « المضحكات المبكية » . ولا يسعني الا أن أسارع أيضا فأقول ان يحيى حقي قد أثبت في قصته « السلحفاة تطير » قدرته الفائقة في فن « المبكيات المضحكة » ، وهو سيختط هذا الاتجاه في كثير من كتاباته القصصية ولوحاته بعد ذلك ، كما سيظهر على الاخص في « دمعة فابتسامة » .

وتبدأ مصيبة داود افندي منذ اليوم الذي حضر اليه صبي شيخ الحارة ليعلنه بالحضور الى القسم باكرا . وداود افندي رجل لم يذهب للقسم في حياته ، وأشد ما كان يكرة ان يتخطى بابه ويواجه هذا الصنف المسمى « رجل البوليس » .

مرت بداود افندي بعد تلقيه الاستدعاء ليلة عصيبة . كان قد (استوى) بعد ان استشاره الصديق عامل المطبعة الانيس الجليس وقد طابت له الجلسة وشملها الغروب بسحره وحرك الصديق مخاوفه .. فقد نقل الحديث من البوليس وفظاظته الى البلطجية وأفاعيلهم .. وهاك نبذة من حديثه : « رئيسي في المطبعة له شهر في الحبس ولا يدري لماذا . واخر أتهمه بلطجي بالتزوير ليفرض عليه ضريبة . ولهؤلاء البلطجية حيل لا يصل الى قرارها الشيطان أن وصل . وربما سبقوا بالشكوى ليستولوا على أجر التصالح . ومن يدري ! ربما وجدوا فيك يا داود أفندي بطيبتك خير رصيد فمدوا حولك حبائلهم. ثم انني لست مطمئنا الى «١٩ أحوال» هذه ! ووجه صبي شيخ الحارة ينم عن شر كبير ولا بد انه عالم بشيء لم يرد الافضاء به الينا » .

ولكن داود افندي اكتشف عندما ذهب الى قسم البوليس في صباح اليوم التالي ان الدعوة كانت في شأن مخالفة هينة : القاء ماء قذر في الطريق . الا انه نعثر هناك بالشخصية الحاسمة في حياته ـ واصطدم بالحادثة التي ستقلب أحواله رأسا على عقب . « كان الجاويش من الفظاظة وقلة الادب ، وداود افندي من الكبرياء وقلة الصبر ، بحيث وقعت الواقعة بينهما » . ولا نستطيع أن نفهم من داود أفندي ما حصل بالضبط . ولكن « الجاويش هزه هزة أوقعت طربوشه على الارض امام عدد كبير من الناس ، بينهم بعض من يعرفونه من اهالي الحي » .

أوقع طربوشه على الارض .. هو الذي تقوم داره على رأس الحارة .. « واجهة طويلة ، بها الباب على الحارة وواجهة اخرى على الشارع ، مع انها شبر ونصف شبر عرضا ، الا انها تدل على أن صاحب الدار أوجه وأغنى من بقية السكان الذين لا يستطيعون رؤية الزفات والمواكب و « الخناقات » الا بثني رقابهم ، وبخطر الوقوع في يد رجال الاسعاف » .

أوقع طربوشه على الارض .. وهو « الوحيد الذي يسكن في ملكه ، والمعروف ان له ايضا استحقاقا في وقف عن أم أمه أو جد جده » .

وقد حاول صديقه وجاره عامل المطبعة ان يخفف حدته ولكنه أصبح يرى سعادته في أن يطلب رد شرفه .

لم يكن ما تملكه هو الغضب بل الاصرار .. ومثل الفراشة التي تنبهر بالنور وتندفع اليه .. اندفع داود أفندي الى المحاكم وطالب بتعويض قرش صاغ واحد ردا لشرفه .. وزاد عزما واصرارا على الحصول على هذا الثمن البخس لشرفه .

وقضى ليلتين يتشاور مع صديقه كيف يرفع الدعوى ومن من المحامين يختار . واستقر قراره أخيرا على محام يؤكد عامة الشعب الصالحين ان « سرا باتعا يسنده فلا يتولى قضية الا كسبها . ودفع داود أفندي مقدم الاتعاب جنيهين كالحلاوة بعد ان أكد المحامي ان

الدعوى رابحة وفي أقرب ميعاد « وان الجاويش سيجازى أشد الجزاء وبعد ذلك يعاقب اداريا » .

ولم يحضر المحامي بالجلسة المحددة ونودي داود افندي ونظرت دعواه ثم أجلت في أقل من لمح البصر .

وكما هي عادة أولئك الجدد من المترددين على المحاكم لم يذهب داود افندي الى الجلسة وحده أول مرة بل اصطحب معه صديقه وابن حارته وجليسه في الامسيات امام باب الدار عامل المطبعة . وكما دفعه داخلا الى قاعة المحكمة – او ان شئنا الدقة النفسية « الى المصيدة » دفعه مرة اخرى – كالهم الثقيل – وسط الزحام خارج الجلسة .. وتأبط ذراعه وقاده الى القهوة المواجهة للمحكمة حتى يسترد داود أفندي أنفاسه اللاهثة . وجلسا وعلى جانبيهما موائد اكتظت بوكلاء المحامين وسماسرتهم . وكان الصديق على صلة ببعضهم فدعاهم للجلوس معهما وعرفهم بصاحبه .. حقا ، يا له من صديق . فالصديق انما يعرف عند الضيق .. وأي ضيق اكبر من ان يذهب الى المحكمة ويمثل أمام القاضي وبين العساكر والحجاب من لم يغادر مجلسه طوال عمره فوق الرصيف ، ومن كان « ككل اولاد الذوات الذين تربوا في آثار عز سالف .. فيه مع الكبرياء والانفة كثير من أخلاق الصبيان وقلة دراية بالحياة في معتركاتها » .

ذهب داود افندي اذن الى المحكمة لمهمة وقتية ، كمن يذهب الى طبيب الاسنان ليخلع ضرسا أو يدخل غرفة العمليات لاستئصال ورم أو مصران .. ولكن اولئك الذين يذهبون الى الاطباء لا يأسرهم الجو في العيادات والمستشفيات ، بل ويشمون أنفاسهم بمجرد أن تطأ أقدامهم أرض الشارع .. ويدعون الله من قلوبهم الا يعيدهم الى أيدي الاطباء والمستشفيات ، اما العكس فيحدث كثيرا بالنسبة لاولئك الذين ترميهم ضرورة الى قاعات المحاكم .. مدعين بحق مدني .

بادر داود أفندي الى دفع جنيهين اخرين للمحامي ليضمن حضوره في الجلسة القادمة ، كما أرضى الشهود بما وسعه كرمه . ولعلي أسمعه يقول للمحامي : « خلينا نخلص .. في عرضك » . ولكن في اعماق العقل بدأ السحر يؤتي مفعوله ، فقد « اشتمله جو الجلسة من رأسه الى أخمص قدميه ، وشد عليه قبضته فلا يستطيع خلاصا . كل ما يسمعه جديد ، غريب ، رنان ، أخاذ ، وأي سحر أقوى من سحر قاعة الجلسة ! صوت الجمهور بين همس ووجوم ، ومحاورات القاضي والمحامين والنيابة تنقله الى عالم غير عالمه . ثم فجأة وبدون سبب ظاهر يخيم على الجميع صمت عجيب . فيشعر انه يسقط من علو شاهق وسط الفضاء . ثم من جديد يعود التيار الى أشده ، واذا به محمول محملق يكاد يفقد وعيه : القفص ، والجنود ، نداء الحاجب . تلك التعابير القضائية التي تنحني لها الجباه اجلالا ، وهي ليست الا آلفاظا ! » .

ورغم ان داود افندي ما كاد يتخطى باب الجلسة اول مرة حتى بلع ريقه لاول مرة ، الا انه نقل مجلسه من امام داره الى « القهوة اياها » ووجد متعته في الجلوس عليها محاطا باصدقائه الجدد « من وكلاء المحامين . وكلهم يحتسي القهوة والشاي ، ويدخن النارجيلة على حسابه » .

ومع مرور الايام اصبح « يشترك معهم في احاديث مهنتهم وتجري على لسانه نفس الالفاظ القضائية التي يتشدقون بها » بل وصار يدخل معهم الى الجلسة في بعض الاحيان .

كان داود افندي « من اولاد الذوات الذين ورثوا عن وارثين فكان من المعقول ان يفتقروا طبقة بعد طبقة وجيلا بعد جيل . فهو بالنسبة لجيرانه (واصدقائه الجدد) غني ولكنه في الواقع فقير . ومع ذلك فهو يعتز باصل لا يغنيه فيستريح ولا يسلكه في الفقراء فيريح . وماذا يفعل وهو من قمة رأسه الى اخمص قدميه ابن عز ؟ في كرمه وجهله » فكان من الطبيعي ان يستغل الاصدقاء الجدد بسطة يده وطيبته مع معارفه ، و (يستعبطونه) راضيا فتكون طلباتهم في المقهى على حساب داود افندي الذي بدا له هؤلاء الصحاب الجدد فرسان الاحلام ، وربابنة ماهرين يدخلون الجلسة ويخرجون منها .. يتشدقون باصطلاحات قضائية غريبة ويتأبطون اوراقا هامة وملفات تحمل بين طياتها اسرارا دونها اسرار الوزارات والحكومة ..

واذا رجعنا الى قصة « المقامر » لديستوفسكي لوجدنا ان البطل كان لا يعرف المقامرة .. وذات مرة قاده بخته – مثلما قادت « ١٩ أحوال » داود افندي الى القسم ثم المحكمة – قادته الى ملهى للقمار.. وهناك التقى باحدى مدمنات القمار .. اشفق عليها ورثى لحالها . وآلى على نفسه أن ينقذها من داء المقامرة ويجعلها تتوب عن هذه الآفة .. ولكنه من احتكاكه بها وبالبيئة انتقلت اليه العدوى واصبح مقامرا اشد خطرا منها . حتى قضى عليه الداء الذي ذهب لينتشل منه تلك التي بدأت علاقته بها نظرة اشفاق ورغبة في الاصلاح والهداية ..

هكذا كان حال داود افندي الذي كان رجلا طيبا مسالما له قصص شائقة عن تخوت الحمولي وعثمان و « مثله عند دخول القسم كمثل حيوان اليف آكل عشب يجد نفسه فجأة في غابة تعج بكل ذي ظفر وناب» وكان « تجافيه عن العالم الخارجي فيه تمسك بالماضي ، كأنه يعيش من وراء سد الصين » .

وتدخل القدر مرة اخرى فعقص العقدة حول عنق داود افندي .. واوغل داخلا الى المصيدة خطوة اخرى .. وتمثلت يد القدر في خدمة جديدة يسديها الصديق والجار القديم الذي كان قد نجح في سعيه حتى ترك سلك عمال اليومية واصبح من طبقة الافندية اصحاب المرتبات الشهرية ، فعين حاجبا امام باب قلم في وزارة ورحل عن الحارة المسدودة اللعينة وسكن المنيرة . فعندما رأى اندماج داود افندي في وسط وكلاء المحامين دون ان يكون لديه قضية حقيقية يشغل بها اراد أن يساعده ويوجد له ما يشغله . فسعى وعرفه بقريب له معدم ، منعه فقره من رفع دعوى للمطالبة بملك واسع يظلمه فيه رجل ذو بطش وسلطان . اراد ان يخدم الاثنين ويكفيه ثواب المسعى . اتفق معه داود افندي على ان يقوم هو بالانفاق على الدعوى نظير اقتسام ما يحكم به مناصفة بينهما واسر اليه داود افندي انه سيرهن مصاغ زوجته ليصرف على الدعوى . وبعد يومين حمل داود افندي « دوسيها » في يده وسار مجدا الى المحكمة .. لقد خرج فعلا من المستنقع الضحل الى البحر العالي بامواجه .. ترك الشاطىء الامن الوديع الى اللجة المضطربة وغرق ..

مسكين داود افندي اصبح بجلبية وجاكته غذاؤه طبق الفول المدمس بالزيت في المطاعم الدنيا .

فقد وقعت القطيعة بينه وبين اسرته وكيف لا وقد باع مصاغ زوجته بلا رجعة . وصار يتجشأ برائحة البصل الاخضر والفجل .. هو المتأنق الذي كان لا يأكل الا أخف الطعام في اغلب أيامه . لا تفارقه علبة بيكاربونات الصودا يخرجها من جيبه ويسف منها قليلا دواء لمعدته المترفة .

ان داود افندي هو محور قصة « السلحفاة تطير » ، هو موضوع القصة ، اما محرك هذه القصة وبطلها الواقعي فهو الجار الصديق الحبيب المعين الناصح الامين ولا نعرف اسمه ، فهو راوي القصة . كانت تربطه بداود افندي صلة اقوى واشهى من القرابة والنسب ، صلة الجوار . ورغم اختلافهما في السن والمهنة فقد كان اكثر الجيران ارتباطا به . كان اذا عاد الى داره من المطبعة في صفرة الشمس ومر على داود افندي وهو جالس امام باب داره ناداه لمجالسته وتشبث به كأنه يجد لذة في ان تصافح يده الناعمة النظيفة يدا صلبة خشنة .

انقبض قلبه خوفا على صديقه داود افندي عندما ذهب الى القسم ذاك الصباح . وربما كان حديثه له بالامس السبب في تحريضه على رجال البوليس . وربما كانت النتيجة التي وقعت هي التي كان يريدها او يتوقعها .

ولمجرد الرغبة في أن يسترسل بينهما الحديث ولا تنفض الجلسة الحلوة على قمة الحارة بعد الفراغ والعودة من العمل ـ نصحه بل حرضه على رفع دعوى رد الشرف . وقد استقرا معا على المحامي الذي وكله داود افندي عنه . ورافقه الى المحكمة .. وانحشرا في مقعد وجلسا ينتظران دورهما . وتألم وهو يراه ممتقع اللون مصفرا مرتجف اليدين . كالقشة في بحر « ينعكس فيها اقل اضطراب لسطحه علوا وهبوطا ، ومدا وجزرا » وهو الذي اخذ بذراعه بعد أن تأجلت الجلسة واجلسه بالمقهى المواجهة للمحكمة حتى يسترد ثباته .. وهو الذي دعا بعض وكلاء المحامين من معارفه لمجالسة داود أفندي للترويح عنه .. وهو الذي عرفه بقريبه المعدم ليوجد له ما يشغله . وعندما رآه بعد وقت طويل جالسا في المطعم امام طبق الفول المدمس تجمع اصابعه بلقمة حبات الفول وتعجنها في الزيت ثم تحملها كتلة واحدة ككرة الى فمه » سر كل السرور لتحسن صحته ولتخلصه من امراض معدته . ويشهد الله انه شعر بموجة شوق قوية تملؤه فجرى نحوه ومد له يده مشتاقا يكاد الفرح يقفز من كيانه قفزا .

فلماذا ترك داود افندي يده ولم يأخذها ؟ ولما رفع اليه عينيه لم تستقر نظرته على وجهه حتى رآها تمتلىء بأقصى ما تستطيع العين ان تستوعبه من الكراهية والتأفف والبغض ؟ واذا بداود افندي يصرخ في وجهه ويشيح عنه :

ـ روح الله يخرب بيتك زي ما خربت بيتي !

لقد تملكت الصديق الحيرة فسمر في مكانه . اي جرم انى ؟ وماذا فعل ؟ انه لا يذكر الا انه كان دائما تحت امره كأنه عكازه . كان يجلس منه مجلس الولد من ابيه ، ويترك عمله ليكون في خدمته ، ولا يذكر انه خانه او آذاه أو ضلله . ولهذا فان الصديق الوفي والجار الامين لا يسعه ان يهتف في النهاية بالحكمة القائلة : « كن طيبا ما امكنك حذرا ما استطعت ، فلن تكون يدك الا اذى ، ولا قدمك الا سوءا».

ولكن الشيء الذي لا يمكن أن يفهمه صديق داود افندي يفهمه جيدا كل قارىء للقصة .. ويذكر مبتسما تلك القصة الخيالية ، ولكنها ليست بالخرافة على أي حال ، تماما مثل قصة « السلحفاة تطير » ، قصد تلك القصة التي تحكي عن دب اخلص لسيده كل الاخلاص حتى انه لم يقبل ان تزعج ذبابة نومه .. وتقف على انفه وشفتيه فامسك حجرا ضخما وهوى به على وجه سيده الحبيب حيث وقفت الذبابة اللحوح ..

ـ هون عليك ... اين فجيعتك ؟ هذه قصة خيالية ، ولكنها ليست خرافية .

وهكذا من أول وجديد .

واذا استعرنا تعبيرات فن التصوير فاننا يمكن ان نقول ان الاسلوب الذي استخدمه يحيي حقي هو الخط المنحدر (داود افندي) والخط اللولبي الملتف حول الخط المنحدر (الصديق) ثم العديد من النقط المتناثرة في الارجاء (الجيران ـ وكلاء المحامين ـ الشهود ـ القاضي والحجاب ـ القريب المعدم صاحب الحق المهضوم ـ زوجة داود افندي) على ان ثمة نقطتين من هذه النقاط تتحولان الى بقعتين لونيتين متميزتين الاولى بقعة حمراء تتمثل في الشاويش والثانية سوداء تتمثل في المحامي المحظوظ الذي وكله داود افندي لرد شرفه بقرش صاغ واحد . يا بلاش .

بقي شيء محير بالنسبة لراوي القصة .. انه مجرد عامل في مطبعة .. سعى حتى التحق حاجبا باحدى الوزارات .. شخص ليس له من التعليم على ما اتصور الا القسط اليسير .. وليس له من اجادة اللغة الا القدر الذي لامثاله ، ومع ذلك فانه يحكي القصة بلغة عربية فصحى يحسده عليها كبار الادباء .. فكيف يتأتى ذلك في منطق القصة؟ التعليل الوحيد هو ان هذا الشاب الذي بدأ حياته عاملا في مطبعة ثم سعى للالتحاق ساعيا باحدى الوزارات .. لا بد انه واصل سعيه وجهاده وهو الطموح الذي يريد أن ينضم الى طبقة الافندية .. حتى اكمل تعليمه ربما في ساعات المساء .. فكان في الصبح فراشا وبعد الظهر تلميذا .. حتى حصل على شهادة عالية ربما في الادب أو الحقوق .. او ربما وهذا على أرجح الفروض .. في الفلسفة طالما انه يعرف الحكم والامثال مثل تلك الحكمة التي يختتم بها قصته : « كن طيبا ما امكنك حذرا ما استطعت فلن تكون يدك الا اذى ، ولا قدمك الا سوءا » ثم بعد كل تلك السنين عاد يستعيد ذكرى جاره داود افندي ويحكيها لنا لما فيها من عبرة وطرافة .

٢) « كنا ثلاثة ايتام »

واذا كانت « السلحفاة تطير » تنتهي بحكمة من الحكم التي يحفل بها التراث العالمي ، ربما من الصين في الشرق او من فرنسا في الغرب فان القصة التالية في مجموعة « قنديل ام هاشم » تنتهي بدورها بحكمة ولكنها في هذه المرة مثل من امثالنا العامية التي تنضح بالحنكة والمرارة المضحكة .. انه المثل القائل « راح يصطاد اصطادوه » . وفيه من قوة الفكاهة ما لا يدركها الا من يقصم هذا المثل ظهره يوما من الايام .

وبطل هذه القصة بدوره كان سيعيش سعيدا لو تركه الناس لشأنه « ولكن كيف يتأتى ذلك ، وفي الناس اخلاص ومحبة ورغبة في مساعدة الغير ، وتطوع لعمل الخير والتحريض عليه ؟ » لقد رأينا كيف ان عامل المطبعة صديق داود افندي اراد ان يساعده ويوجد له ما يشغله فسعى وعرفه « بقريب له معدم منعه فقره من رفع دعوى للمطالبة بملك واسع يظلمه فيه رجل ذو بطش وسلطان » اراد أن يخدم الاثنين ويكفيه ثواب المسعى . وهكذا اولاد الحلال كثير . فقد بدأ اقارب البطل في قصة « كنا ثلاثة ايتام » ومعارفه يهمسون له « متى تزوج اختيك ؟ لقد آن الاوان ! » ثم في مرة اخرى : « كيف تأمل أن تعثر لهما على زوج صالح وانت قابع في داركم القديمة المختبئة بدرب الحجر من وراء حارة التمساح لا تزور ولا تزار . ام تراك معتمدا على الخاطبة ومقالبها ؟ »

وكانت هذه النصائح التي يكفي اصحابها ثواب المسعى هي الشرارة

صدر حديثا :

الاشتراكية العربية

بين النظرية والتطبيق

بقلم

عبد الهادي الفكيكي

دراسة جدية مدعومة بالوثائق والارقام عن منجزات الاشتراكية في الجمهورية العربية المتحدة والجمهورية العربية السورية والجمهورية الجزائرية

منشورات دار الاداب — الثمن ٣٠٠ ق . ل

التي اشعلت الفتيل ، ولم يعد بعد قليل سوى الانفجار .

وقد سهر الفتى يفكر ويفكر . رسم لنفسه برنامجا وصمم على تنفيذه دون استشارة أحد حتى شقيقتيه .. اليست المشكلة ان الزوج الصالح لم يأت اليهم ؟ اذن فليبحثوا عنه ، وليذهبوا اليه ، وفي موطنه، ولو ادى الامر الى اصطياده احتيالا . سيعد الشبكة الماكرة بنفسه ويلقيها في طريقه بيديه . هذا صيد حلال ، وأي شيء اعظم ثوابا عند الله من تدبير زوج صالح لاعز الناس عليه ؟

باع بعض الحلى وسحب كل نقوده المودعة بصندوق التوفير ، واستأجر شقة كالحق ولكنها غالية عليه في جاردن ستي . واشترى لها بعض الاثاث من معارض سليمان باشا ... ولما سمع وكيل العمارة يقول : ((هنا الانتريه ، وهنا الاوفيس !)) اطمأن قلبه وقال : قد احكمت الشبكة فلننتظر صابرين وعلى الله توكلنا .

كم كان الاخ يحب اختيه .. وكت كانت الاختان متعلقتين بالاخ، مات ابوهم والابن لا زال في بطن امه . كان الاب قد انجب بنتين .. نعمات وعطيات .. ولكنه كان يريد الولد . وعندما استقر في بطن الام سر الصبي الموعود مات الاب وهو لا يعلم انه فاز بامنيته .

ولم يكد يوظف الابن بالحكومة ويقبض اول مرتب حتى ماتت الام بدورها ، وكأنها لم تقو على فراق اولادها الا بعد ان اطمأن قلبها على مستقبلهم .

ثم مرت الايام ودرج النسيان باذياله على الماضي وأهله واذا بالاخ في صحبة شقيقتيه من أهنأ الناس . ثلاثتهم في مقتبل الشباب ورونقه في مرحه ونزقه ، في جريه وقفزه ، في عطره ونضرته . من حسن الحظ انهم لم يكونوا في سعة تكفي للانفاق على ثلاثتهم ، فقدم الصبي وحجزت البنتان في الدار . وكذلك نجاهما الله من الجامعة بآدابها وفلسفتها ، وسلم لهما عقل غير ملتو وطبع غير متكلف كل منهما نمت انثى جسما وعقلا . لا يعكر حديثهم نقاش او جدال . صحبة لم يترك له صفاؤها مطمعا . كانوا يعيشون متلاصقين كصغار القطط وهن عمي.

ولكن اولاد الحلال كثير .. ونصائحهم اكثر ولا يسلم احد منها . واستمع الاخ الى نصح الناصحين .. وقرر ان يسعى لتزويج اختيه ، وان يتخذ كل عمل ايجابي في سبيل هذا الهدف النبيل . وقد رأينا ما فعله في هذا السبيل ، والشبكة التي صرف دم قلبه لينصبها للخطاب. وانتظر صابرا متوكلا على الله ..

وغمزت السنارة .. وخرج من الشقة ذات صباح فاذا به يواجه صاحب الشقة المقابلة خارجا بدوره . واحتواهما المصعد معا . واتصل بينهما الحديث . ودعا الاخ الله ان يكون لجاره وهو موظف كبير على المعاش ابن صالح او ابن اخ او ابن اخت او صديق او معرفة . وقال : لعلهم اذا رأوا اخلاقنا وشرفنا ، وخبروا احوالنا واستقامتنا تقدموا بالخطبة .. ولكن الجار ايضا كان يقول كلاما في سره ، وان كنا لم نسمعه .

واغتم الاخ عندما عرف ان للجار ابنة لا ابناء وقرر ان يقطع الصلة به فهو يبحث عن فتيان لا فتيات .

ولكن عندما رأى تلك الابنة فقد عقله .. ويصف يحيي حقي .. هذه الابنة وصفا يجمع كل ما في اللغة العربية من قدرة على الوصف ويذكرنا بنصوص عربية قديمة ــ في المقامات .. وغيرها ..

غمزت السنارة اذن ، ولكن الجيران صدوه .. فازداد اندلاقا .. حاول ان يجد مسوغا لتكرار الزيارة فلم يوفق . وجد باب الشقة موصدا في وجهه . ولما شعر انهم يتعمدون صده زاد هياجه وهو المعروف باتزانه وكمال ادبه . ارخت له سنية الخيط قليلا .. زارا معا معالم القاهرة خلسة .

ولما تأكدت من ان الصيد لا خلاص له من الشبكة .. واجهته ذات يوم :

ــ ما العمل اذن ؟ ان بابا يرفض بتاتا لانك موظف صغير ومرتبك قليل .. ولا يدري كيف تقوى بهذا المرتب على المعيشة في جاردن ستي.

ولما رأته مطرق الرأس غما اضافت تقول :

ــ ولكن ماما في صفي ..

وكان القرار ان ينتقل الاخ الى مسكنهم على ان تذهب نعمات وعطيات للاقامة مع احدى الخالات في الريف .

ترى ، لو لم يكن الاخ قد ترك درب الحجر وظل راضيا بحارة التمساح في صحبة اختيه الحبيبتين ، هل كان سيكون احسن حالا ؟ ولكن أيها الناس لا تبخلوا بكرمكم وطيبتكم . اشفقوا على شاب قليل الخبرة والتجربة . ولا تبتسموا سخرية منه واستهزاء ، فقد تكون الشراك منصوبة لكم في الطريق بدوركم .

ونلتقي في قصة ((كنا ثلاثة ايتام)) بمعالجة لينة لمسألة تعليم البنت وبقائها في البيت .. وكان يحيي حقي يقول لنا من ثنايا السطور انكم واهمون اذا اعتقدتم ان ابقاءكم البنات في البيت والاعتماد على الاخوة في القيام على الاخوات الى حين الزواج هو عين العقل والصواب ، فكم من اخت لقيت من زوجة الاخ صنوف الهوان والتحقير. ليس من حل الا تقرير المساواة الاجتماعية بين الولد والبنت في فرص الحياة .

وان رواية القصة هنا على لسان الاخ أكثر اقناعا وقبولا من رواية قصة السلحفاة على لسان عامل المطبعة .. من ناحيتين : اللغة منسجمة مع شخصية الراوي ومستواه الفكري .. كما ان القصة المسرودة ذات طابع ذاتي .. ومن الطبيعي ان يسرد الشخص خصوصياته لا ان يسردها عنه غيره . اما في قصة مثل ((السلحفاة)) فان الصفة الخصوصية اقل تحقيقا .

اما عن الشكل الجمالي المستخدم في قصة ((كنا ثلاثة ايتام)) فليس الخط المستقيم بل الخط الدائري ، فبعد كل تحركات الخط يعود من حيث بدأ ، أي نعود الى ان البنتين لم تحظيا بالزواج المرتقب .

٣) كن .. كان !

في قصة مثل ((كن .. كان !)) يحتاج الكاتب الى مهارة خاصة . فبالاضافة الى ملاحظته للواقع .. وابتدائه بشخصية واقعية جدا .. هي شخصية حسين فرغلي .. يعمد يحيي حقي الى استخدام الفانتازيا حتى يكمل البعد الواقعي للحقيقة بالبعد الميتافيزيقي . ولهذا فان الاسلوب المستخدم هو اسلوب الخطين اللذين يلتقيان ثم ينحسران ليكشفا عند الانحسار عما يريد الكاتب الكشف عنه ..

واستخدام الفانتازيا قد يكون استخداما فجا غير مقدور عليه .. فيأتي العمل الفني سمجا خرافيا ضعيف الاثر .. تماما مثل التجريد في الفن فهو يولد اعمالا على غاية الضعف في ايدي غير المقتدرين ويولد اعمالا على غاية من القوة في ايدي الموهوبين العارفين باصول فنهم ودقائق صنعتهم .

ولقد كان استخدام يحيى حقي للفانتازيا في قصته ((كن .. كان !)) على غاية من الاتقان .. حتى انك لتحس انك امام قصة واقعية منذ اولى خطواتها الى خاتمة مطافها .. بل حتى اذا كنت عارفا بصنعة القصة وتنبهت الى الفانتازيا المستعملة فانك تقول لنفسك وماذا في الامر من غريب ؟ انها لحظة داخلية .. ارتداد في الزمن وفي الشخصية يمكن ان يحدث على المستوى النفسي ان لم يحدث على المستوى الواقعي .. فكم منا لم يتمن ان يكون قد اختار لنفسه مهنة غير التي امتهنها وتاق الى الارتداد عنها الى مهنة اخرى يفضلها ، وان ضحى بعدد من سني عمره . ومن منا لم يندم على انه لم يختر فتاة اخرى كانت تداعب احلامه في صباه وشبابه زوجة له بدلا من تلك القريبة او غير القريبة التي اختارها زوجة له فعلا .. من منا لم يجر المقارنة المتحسرة في وقت من الاوقات بين حياته كما آلت اليه وحياته كما كان يمكن ان تكون لو لم ينتهج الطريق الذي انتهجه فعلا ، وبخاصة كلما تقدم بنا السن واوغل بعيدا .

اذن فالبداية التي يمكن ان يبنى عليها الموقف الفانتازي ممكن ومحتمل ، وان لم يكن محققا . قد لا يكون حادثا ولكنه ليس بمستحيل

حدوثه على أي حال .. وبخاصة أن يحيي حقي يحكم اربطة هـذا الموقف حتى انك لا تستطيع أن تجزم بما اذا كان هذا الموقف لم يحدث لبطل القصة حسين فرغلي فعلا أم لا . فان الحياة ..وبخاصة فـي ناحية حوارها مع النفس مثل الليل ((عالم مجهول مليء باصـوات غريبة لا نتبينها)) فعناصر الموقف الفانتازي في القصة موزعة بيـن لحظتين ، لحظة بالليل كان السكون فيها شاملا والمنازل نائمة ، وحسين يسير في الطريق عائدا الى بيته يغمره الظلام بعد سهرة رتيبة مملـة مع الاصدقاء في القهوة . ففي هذه اللحظة التقى حسين بالشخصية المجهولة التي ابرم معها اتفاقيته . واللحظة الثانية تقع مرة حين تناول حسين ورقة لعب يربح بها الدور ورفع يده بها مسرورا ليقول : ((كن ـ كان)) وتقع ثانية عندما يرفع يده في مرة اخرى وهو يلعب ذات اللعبة ولكنه لم يستطع أن يتم تلك الكلمة ((كونكان)) فقد مات تنفيذا للاتفاقية التي ابرمها في الظلام . وليس بغير الطبيعي ان يموت حسين فرغلي في اللحظة التي مات فيها فهو ((يقف طول النهار ينبح امـام تلاميذ كالقرود يلهون ويعبثون ، حتى يجف حلقه ويضطرب قلبه . هل نسي ان الطبيب قال له ان قلبك ضعيف يخشى عليه كثرة الاجهاد ؟)) وقد كان يحس هذه الليلة على الاخص كأن ابرة تغرز فيه . لقد ساءت حالته . انه الارهاق الذي يخشاه ، فمتى تأتي الاجازة ؟ متى ؟

من منا لم يقل ذات مرة سرا او جهرا .. اني اهب عشر سنوات من عمري مقابل عشر سنوات اخرى احياها كما اريد ويتراءى لي ؟

وهذا ما فعله بطل القصة حسين فرغلي . فقد القى بنفسه في مهنة التدريس وكرهها وكره نفسه ، فهو يسلح الصبيان بقشور مـن العلوم النظرية وشقشقة لسان ان لم تكن تضر فهي لا تنفع . ((كـم كان بوده أن يكون محاميا . انه يحس في نفسه القدره على الفهـم واستخلاص المبادىء ، وسلامة المنطق . وهذه مواهب لا تفيده فـي صناعة التعليم ، ولكنها خليقة ان تتقدم به الى الصفوف الاولى لو انه مارس المحاماة .

((آه ! انه الليلة آسف على حياته ، نادم من جديد . اما يأتـي اليوم الذي يتاح له فيه ان ينسى كيف القى بنفسه فـي مدرسـة المعلمين وهو كاره لها ؟ وكيف نكص عـن الزواج بجارته آمال ! تلـك الفتاة التي خلبت لبه وسحرته ، ورضي بالزواج من احسان . خشي الاولى لانها مستبدة لعوب فاتنة ، وقنع بالثانية لا عن حب ، بل قياما بواجب ، فهي ابنة عمه ..اطمأن لها لانها ربة بيت هادئة ، معتكفة . فماذا فعلت بنفسك يا حسين ؟ ادرت ظهرك للنشوة والمتعة ، واللذة المتجددة ، والحياة المليئة بالعواطف وآثرت حياة راكدة كالمستنقع . سرعان ما مل احسان وسرعان ما انقلبت هذه الفتاة المشوقة القـد الى امرأة بدينة خشنة اليدين . لم يرها مرة تستقبله عند عودتـه وقد سرحت شعرها او اعتنت بزينتها . تبدو له الان حياته سلسلة من اخطاء وسوء حظ)) .

((لو استطيع ان ارد القهقري عشر سنوات .. عشر سنـوات فحسب .. ولو ضحيت من اجل ذلك بعشر سنوات مثلها من مستقبل عمري .. سنة بسنة ...)) .

من الطبيعي أن تسمع هواتف الروح .. وهمساتها بوضوح اقوى في الظلمات .. وان يسمعها على الاخص ذلك المحبب على الاخص الى الناقمين المتمردين على اوضاع حياتهم الذين يقولون ليتنا ما ولدنا .. ليتنا ما عشنا هذه العيشة القذرة .. ما الجدوى من الحياة التـي عشناها او على النحو الذي عشناها عليه .

وقد ظهر لحسين فرغلي في ظلمة الليل وهدأة الطريق ذلك الذي يحب ان يسمع في القلوب اصوات عدم الرضاء والتمرد والنقمة على الحياة وعلى من جعلها للبعض مرة مثل العلقم .

كان ((رجلا)) نحيفا هو الى القصر ادنى منه الى الطول ، يرتدي ثوبا اسود كثياب التشريفات ، من طراز يرجع الى عهد غابر ، ذكـر حسينا بصورة قديمة لاحد جدوده . والغريب ان هذا الثوب كـان فضفاضا كأنما فصل لرجل أطول منه وأشد امتلاء ، فقد رأى حسين امامه رقبة نحيلة تائهة في بنيقة منشاة واسعة يريد ذقنه ان يعتمد على حافتها فيشنقها فرط ارتفاعها . لم ير له يدين ، وخيل اليـه ان الكمين فارغان ، ليس فيهما ذراعان . حدق بنظره في تقاطيـع هذا الغريب . ورأى ـ او خيل اليه انه رأى ـ وجها انسانيا ذا عينين وانف واذنين ... ولكن عجبا ! لماذا لا تستقر نظرته على هذا الوجه ؟ لـم تنطبع له صورة في ذهنه كانما وجهه هوة لولبية او سراديب ملتوية او صورة فوتوغرافية مهزوزة)) .

((اشاح حسين بوجهه من الرعب ، ومن تلك الرائحة النتنـة القاسية التي غمرت وجهه من فم هذا الغريب . وحين بدأ الـرجل يكلمه ، اذا صوته صوت طفل وديع واذا هذا الصوت الحنون وحده يراخي قبضة اليد التي كانت تجذب شعره فيعود الى رقاده . وخامر قلبه شيء من الطمأنينة لم يدر سببها)) .

ثم ((خفت الابخرة المنتنة شيئا فشيئا . واستطاع حسين ان يقارب وجه هذا الغريب .. انتبه حسين الى ان جوا من الطيب والرائحة الذكية تسطع من مخاطبه . وتمنى لو استطاع ان يقترب منه او يضع ذراعه في ذراعه .

هذا الرجل ذو اليد التي في برودة لوح من الثلج ومع ذلـك يجعل وقعها الجبين يلتهب ويتصبب عرقا .. هذا الرجل .. هـو صورة فريدة في الادب المصري الحديث من السهل ان نقول باقترابها من صورة موفستونوليس في رواية فاوست لجوته .. ولكن من الاصوب ان نقربها ايضا من ((الموت الاحمر وراء القناع)) لادجار الن بـو .. فاذا كان يكمن وراء ((السلحفاة تطير)) و ((ثلاثة ايتام)) درس تشيكوف فان ((كن .. كان)) تضطرم بروح ادجار الن بو .. ولكن ليس معنى ذلك اننا في هذه القصة امام كاتب مقلد .. بل اننا امام كاتب مرهف الحس .. ذواقة .. يعرف كيف يقدم فنا خاصا من خلال ما هو حتمي ولازم في تطور الادب .. أي من خلال الاستفادة من تجارب السلـف المجيدين .

٤) القديس لا يحار :

حقا ((ما معنى هذه الحياة ؟)) .

لقد تساءل العبد لله حسين فرغلي نفسه هذا السؤال في قصة ((كن .. كان)) ولا بد ان افضل من يعرف الاجابة على هذا السؤال القديسون الابرار .. فالقديس لا تبدو له المسائل ـ كمـا تبدو لبقية الناس ـ متناقضة مضطربة ، مضحكة مبكية . فـ ((لهؤلاء القديسين نظرة تشمل الكون ، وتفهم الاسرار . فما يبدو عجيبا هو ذات الحكمة ، وما يبدو متناقضا هو عين الاتساق)) .

فلنر مع القديس في القصة التالية ماذا تعني الحياة ؟ لقـد تمثلت امنية حسين فرغلي في ان يعود الزمن الى القهقري ويرجـع العمر الى الوراء عشر سنوات حتى يرتد عن حياة خاطئة عاشها الـى الحياة كما يحب ان تكون .. نجاح في العمل .. دخل وفير .. مجد .. وامرأة لعوب فاتنة خفق لها قلبه وخلبت لبه وسحرته . السعادة اذن في نظر حسين فرغلي هي متعة مزدوجة النجاح .. والجسد .. فلنر الان ما الذي يعتقده في هذا المقام نبيل شاب تربى في كنف العز وعاشر السعداء ، ولم تقع عينه على بؤس . ولما مات الاب سيـد المقاطعة .. غادر النبيل ـ وكان الابن الاصغر لسيد تلك المقاطعـة النائية ـ القصر واعتكف في كوخ صغير اياما طويلة ، خرج بعدهـا يعلن لمن حوله ان هاتفا هتف به بين اليقظة والمنام يدعوه ان التحق بالقديس . فلما ترامى الخبر الى الناس واكبروا في النبيل نزوله عن الغنى والعز العريض ، واختياره التكفف وسؤال الناس كسـرة الخبز في سبيل الله .

لبس النبيل ثياب الراهب . وسار في مؤخر الركب مطرقا ولو شاء لكان في اول الصفوف . ليس بينه وبين القديس الا خطوة واحدة. فهل السعادة هي الزهد والتقشف والاعراض عن الجاه والمال ومنع

الحياة ؟ لو كان هذا النبيل قد التقى بحسين فرغلي لحظة تمنيه واشتهائه لما انزلق حسين الى ما انزلق اليه .. وللحق بركب القديس مطرق الرأس .. الى جوار النبيل .. لكنه اشتهى ونال ما اشتهاه .. واصيب بخيبة الامل .. وانتهت حياته .. بين ((كن)) و ((كان)) .

لو كان النبيل قد التقى بذلك الذي التقى به حسين فرغلي في الطريق المظلم الى شبرا والى احسان .. لما انزلق مثل حسين الى افراغ هبته في الصيغة الشرعية ولما قال ((اهبك عشر سنوات من عمري طائعا مختارا وانا في تمام عقلي وارادتي ، على ان اعود القهقري عشر سنوات مثلها)) بل لقال له : ابعد عني يا شيطان .. او لقال له فحسب : اهبك عشر سنوات من عمري طائعا مختارا وانا في تمام عقلي وارادتي ..)) فهذا منتهى الزهد وهذا ما فعله النبيل .. فقد وهب حياته كلها طائعا مختارا وهو في تمام عقله وارادته .. وهب حياته للتقوى والصلاح .. واقتلع من قلبه وفكره كل الملذات والشهوات .

لو كان التقى القديس وركبه بحسين فرغلي وشريكه لما كانت قصة ((كن كان)) تتم .. ولكن يجب ان تتم هذه القصة حتى تعرض الاجابتان على السؤال الابدي ((ما معنى الحياة ؟ ما معنى السعادة ؟)) .

ما معنى الحياة والسعادة اذن ؟ اهو الزهد ورفض الحياة ؟

تجيب على ذلك فتاة اختلت بالنبيل . في عينيها ((بريق عين النهم وهو جائع مقبل على اشهى اطعمة ، واضواء لمحة الحبيبه اذا ما شفى الحبيب غلتها)) .

ــ ((... أن الله لا يحب من عباده السائل اللحوح اللجوج ، ولا من يستعين للوصول اليه بمسبحة طولها امتار ... هلم اعترف انك فهمت انني اعلم لماذا ارتديت المسوح . انت طموح . مبدؤك اما الكل واما العدم . تركت الثروة لانها تصف والدنيا لان كل لذة فيها تنقضي، واذا هي تقصر عن حد تخيله .. تواضعك هو الكبرياء ، وزهدك هو غاية الطموح . انني اعلم انك نشأت يتيم الام ، ولو عاشت لوجدت في عطفها ما يرطب قلبك . وما اشبهه الان بصخرة في اعلى الجبل ، ومع ذلك لم يفقد الامل فيك . لقد اخترتك لنفسي ، فابق ، انظر الي، وتمتع بجمالي . ستعلمك قوة حبي كيف تؤمن اولا بانسانيتك ، ليصح ايمانك بعدها بالله . أن لابي جماعة من مهرة الموسيقيين ، اذا وقعوا على آلاتهم ارقصوا الجماد ... فماذا عليك لو خلعت المسوح وارتديت ابهى الاثواب ، فقمت الي وانحنيت امامي ، وتناولت يدي ، ودارت ذراعك حول وسطي ، وضممتني الى صدرك ، ورقصنا فتمثلت النغمة في حركاتنا ، ثم انفلت عنك وانا اخبر بك وانت ادرى بي . وسترى انه لا يزال هناك أمل)) .

ها هي سنية تخاطب شفيق نعمات وعطيات .. وتزين له هجر حياة التضحية من اجل اختيه والالتصاق بها ، ها هي آمال تتشكك في سلوك حسين .. وتطلب منه أن يكون لها وحدها .. حتى مكتبه لا يجب أن ينافسها في الاستحواذ عليه .. ولكن اذا كان كل من شفيق نعمات وعطيات وحسين فرغلي قد اختار الضعف فقد اختار الناسك الفرار من التخاذل ((فلو انه أطاع وسواسه لهوت يده عليها يشدها من شعرها ، ويجرها على الارض ، ولداسها بقدميه او لمال عليها يقمرها بقبلاته ، ولكنه خطا خطوة ليس عنها نكوص ، ولو نكص لما صدقه من بعد ذلك احد ، ولا صدق هو نفسه)) .

((جمع اطراف مسوحه ، وجرى الى الجمع ، واتخذ مكانه بينهم ، لا في اخر الصفوف هذه المرة بل وراء القديس كأنه يلوذ به . وتحرك الجمع يرددون وراء القديس قوله : ((اتركوا الباطل الزائل واتبعوني)).

ولكن يجب ان نقف هنا عند نقطتين : الاولى ان القديس ذاته يعرف ان من المتعذر ان يتبعه كل الناس ((فما قيمة التمسك بالذيل واقتفاء الخطوة في حين ان الروح متبلد والذهن غائب ؟ ستتبعني بروحك وايمانك ..)) .

ومن ناحية اخرى لنستمع الى ما همست تقول به الفتاة عندما لاذ النبيل بالفرار والاحتماء بركب القديس عند الانصراف .

ــ يا له من غر مسكين لم يفهم الوحي . لما نادته رحمة الله أن ابق ، فاذا به يولي عنها وينصرف !

ثم ضربت الارض بقدمها وصفقت تقول :

ــ موسيقى ! رقص !

ولو كان النبيل قد بقي .. لربما صاح مثلما صاح حبيب سنية : ((ايها الناس : اشفقوا علي مرة اخرى . ولا تبتسموا من جديد اذا قلت لكم انني تعبت حقا ،ولكني مع ذلك وجدت في هذا التعب لذة كبرى ...)) .

ها نحن ندخل مع يحيي حقي في اجواء صوفية هندية تفوح منها رائحة الاساطير والنبلاء والنساك والقديسين .. مما يحملنا الى عالم الحواديت والاساطير .. ولكنها للكبار فحسب .. اذ فيها من المغزى ما لا يفهمه الا من حنكته بدوره خبرة الايام .

على اننا يجب أن نسجل في هذا المقال بحق أن يحيي حقي كأديب لا يهدف الى تشييد فلسفة اخلاقية واجتماعية معينة ، فليس هذا من شأن الاديب او من مهامه ، بل هو على الاخص يحكي تجارب قد يقف مرماها ومغزاها عن حد الواقع الذي سرده ، ولا شيء أبعد من ذلك . ولهذا فمن اللازم التحرز من الاطلاق والتعميم في النتائج الاخلاقية والجمالية التي تومىء اليها القصص عامة وقصص يحيي حقي على وجه الخصوص .

٥) بيني وبينك :

علاقة حب بين رجل وامرأة . استمرت عاما وبعض عام.. انقضت. واندثرت . لم يبق منها الا الذكريات . جمرة تحت الرماد ..

افترقا .. خانته .. هجرته .. هو يلعنها ولكنه لا يقوى على نسيان حبهما او على الاقل حبه لها .. يعود فيتوق اليها .. ويتمنى ان ما حدث لم يحدث .. عرف نساء اخريات كثيرة بعدها .. ومنهن من هي أجمل منها واشهى .. ولكن روحه تعود فترتد عن هؤلاء كلهن.. لتهيم باحثة عن تلك التي هجرته . انه يفر ضنا بنفسه على غيرها .. انه غاية الكبرياء والاعتزاز .. هو الحب .. انه يشقى ويتألم في بعاده عنها .. واذ شرب الخمر فليس للهرب منها وابعاد صورتها من امامه بل اقترابا منها واسترجاعا لماضي أيامهما معا .. كانت بالنسبة له المنتهى بها اكتمل .. ولم تضف من جئن الى حياته بعدها شيئا اليها .. ((أنت اخر علمي وذوقي ومنتهى تجربتي . لقد اكملت بك حياتي وتم وجودي ، ولن أزيد بعدك شيئا . حتى خيانتك لم تزدد بها علمي . هي تجربة اصبحت بعدها اكثر فهما لالم الخلق ، واشد سخرية من الم الخلق ...)) .

انه يذكر كل كبيرة وصغيرة في حياتهما معا .. الاثاث الذي اشتراه لعشهما .. المعطف الازرق الذي اشتراه لها .. الثوب الذي لم تعجبها ازراره .. الحذاء ذا الكعب العالي الذي نصحها الطبيب بالا ترتديه خشية على صحتها فرمته .. خروجهما في هدأة الليل .. ومن خلال هذه الذكريات الممتعة ــ التي يمكن اعتبارها من افضل ما كتب في الحب في الادب المصري الحديث ــ يدور الزمن وتتحدد معالم السنين التي احتوت تلك التجربة الغرامية انها السنوات قبيل الحرب العالمية الثانية واثناءها .. فها هو ((العالم مضطرب والمدافع تقصف ، والدماء تسيل ، والدور تخربت ، والنساء ترملت ، والارض امنا العجوز في اللهيب .. ودعت القاهرة عهد السلام فأطفأت انوارها .. ودوت صفارة الانذار ، وهاج الخلق وماج . هل تذكرين كيف رأينا لابسي الجلاليب والحفاة هازئين ، والموسرين هاربين ؟ رأينا شبابا في شرخ الصبا غير عابئين ، وشيوخا على حافة القبر زايلهم كساحهم فهم يجرون الى المخابىء نشطين ...)) .

على اننا ما دمنا في صدد صفحات من الحب ، فلا يسعنا الا ان نرجع الى الوراء لنشير الى فقرة تعد من أجمل ما كتب في الحب

ايضا .. انها صفحة في قصة ((كنا ثلاثة ايتام)) لنرى اللمسة الانسانية الحقة ، ((زرت معها معالم القاهرة ، فكأنني سائح يجوس خلال مدينة مجهولة ساحرة لم يكن يعرفها من قبل .. كنت أتلو كالببغاء قصيدة النيل ، فشرحتها لي سنية بيتا بيتا ، وافهمتني جمال معانيها ولفتاتها . في حديقة الحيوان — التي طالما زرتها فلم اجد شيئا — كلمتني لاول مرة ، من وراء اعمدة السجن المؤبدة ، عيون صافية جميلة حزينة ، وشكت الي وحدتها والامها ، الفضل لسنية في الراحة الكبرى التي شملت نفسي عندما آخيتهم جميعا .. من زحف منهم او طار ، او دب على اربع ...)) .

عندما يحب المرء ويكون على وفاق مع حبيبته تبدو له الدنيا مسالمة مقبلة . ساعاتها حلوة المذاق مثل حلم ناعم مريح ((كم من مرة قطعت فيها هذا الطريق معك ! ذراعك في ذراعي ، فما شعرت اطويل طريقنا ام قصير ؟ افي يومنا المسير ام في غد لم يأت بعد ؟ ام هو في ماض من العمر قد ولى وفات .

كان الطريق هو الذي يقبل الي . يأخذ بيدي ، ويريني اتصاله بالافق ، بالسماء بالافلاك . على جانبيه دور هادئة المأوى كصدور الحاضنات ، ويمر بنا اناس كل منهم شعاع من نور الله))

اما اذا دب الفصال الى الحبيبين ، وفرق بينهما فان الدنيا تظلم وتضيق ، وتصبح الحياة ثقيلة مرة المذاق .

((اما الان ، بعد اختفائك ، فهذا الطريق بعينه اقطعه وحدي فلا ينتهي المسير سخرة ، والافق بعيد ، والسماء غطاء ، والنجوم ترمق الارض شذرا .. الدور سجون . والناس اطياف ذاهلة لا تدري ما القدر ، وان شكت كفرت ...)) .

كيف انقلبت صورة الحياة والاحساس بها عندما تبدلت العاطفة في قلب الحبيبة ، فاصبح التنائي بدلا من تدانيهما . انه اسلوب رومانسي تعبيري ، فالوجود مشرق مضيء متى كانت السعادة تغمر القلب ، وهو مظلم قاتم متى طفى الهم على النفس واغرقها في لجته . كم تبدو هاتان الفقرتان قريبتين من لوحتي فينسنت فان جوج ((حقل القمح)) (١٨٨٩) و ((حقل الغربان)) (١٨٩٠) متى وضعتا جنبا الى جنب .

كما يذكرنا اسلوب يحيي حقي في ((بيني وبينك)) بكتابات معاصرة لها من ((الشعر المنثور)) لحسين عفيف صاحب ((الاغنية)) (١٩٤٠) و ((البلبل)) و ((الزنبقة)) وهو يصفها بأنها شبه قصص في مقطعات من الخيال منسوجة .

من هي هذه الحبيبة ؟

لا نعرف اسمها .. ولكننا من سياق العبارات الولهانة نتبين بعض طباعها . ((فالحياة متدفقة من روحها تمسح عن النفوس جميعها صدأ الالم والحزن ، وتنفض عن الوجوه رماد البؤس والشقاء ، وهي لا تستقر نظرتها على وجه واحد ولا تتريث ..)) سعيدة بالحياة ، والحياة سعيدة بها ، لم تشك يوما ولم تتأفف .

هي لا تعبأ بالخيال ولا تكترث باولئك الذين يبكون لمشهد مؤثر في رواية . ولم تبكي ؟ اتبكي — على حد قولها — من خيال ؟

ما احبت احدا او شيئا حبها للثوب الجديد . ولا تنسيها حتى اصوات القنابل وقصف المدافع اعجابها بثوب رأته لولا ازراره . هدأت الغارة ، وما ان خرجت من مخبئها حتى عادت تصل ما انقطع من حديثها عن الثوب من عند ذات النقطة التي وقفت عندها دليلا على ان صورة الثوب ظلت عالقة بخيالها .. بكل تفاصيلها .. حتى طرف الزر الاوسط على الكم اليمين الذي بدا لها شبه مخدوش .

وهي على اي حال غريرة . لا يقوى مكرها على ستر سذاجتها الكامنة في نظراتها . كان الغموض يحوطها . وكان يصفها صاحبها بانها ام الحياة ! لم يكن لها امس ولا غد .. لم يسمعها تنطق يوما بفكرة او تبدي رأيا .. ما تلوثت شفتاها بالحكمة ، ولا نضح لسانها بالفلسفة . ما دلت الحوادث عليها معاني موهومة مزيفة تهز لها رأسها استعبارا ما سمعها تذكر ولا تأمل . لا ماضي لها ، ولا مستقبل . بل كانت في كل لحظة كما الحياة لتلك اللحظة . ((تشب الحياة الغضة من عينيك . تسيل على صدرك . تتدفق من على جسدك وانت لا تشعرين ... في قبلتك لهيب الف الف ثغر ظامىء ..)) .

لم يكن له امل فيها ، ولا بنى من حبها اكواخا ولا قصورا .. كان يكتفي بحاضره معها .. ولكنه ها هو جريح لا يدري اين هي ولا متى عود . يلعنها احيانا ولكن لا يلبث حبه القديم ان يطفى على كل شيء . ((اصرخ ليخرب العالم ما دمت انا غير سعيد ؟ لا ، والف مرة لا ، بل ادعو الله ان يعيد السلام حتى نعمي يا حبيبتي انى كنت بشبابك في ظلاله ، وان حرمتني هذا السلام لذة الاخيرة .. لذة التشفي !)) .

الفى معها منطقه وعقله ، وقنع بالروح فآمن بالقدر وبالجبر ، وهو متسامح غفور .. اذا وصفته بانه ساذج أو بانه كالعجين في يدها .. لا يتألم .. الذي يعنيه ويكفيه فحسب هو الحب الذي يغمر قلبه ، فهو كل مكافأته واجره .

وعندما هجرته ظل ينتظرها ، وهو يعلم انها لن تعود ، لا يريد الا ان يقابلها مشبوب العاطفة واله القلب ظامىء العين ، فهي لو عامت عزيزة عليه ، وهيهات له أن يبتذل قدرها عنده . وها هو يبادر فيقول ايضا ((في المساء اقول : الفرار الفرار يا نفسي . عبثا حاولت الاستقرار والاطمئنان للخلو والعدم . من يلومك بعد ان ذقت معها طعم الوجود ؟ .. وفي الصباح انتفض على بسمة الفجر ونشوة الطير — اسمعها تقول : انت يا هذا الذي سعدت بالحب . قم ! انما العيد لك))

وقد اقسم ان ينساها كمن نسي قبل ان يعرفها ولكنه لا يقوى على ذلك . وقد تنقل بعدها بين نساء كثيرات ولكنه لم يزد مع كل منهن عن لقاء واحد ، ومنهن من كانت اجمل منها واشد سحرا .. ثم يفر ولا يعود .. يزداد شوقه وحنينه اليها اذا قادته قدماه الى سيدنا الحسين ومر تحت البوابات الهرمة ووقف امام الجوامع العتيقة .

اشترى يوم اختفائها مسبحة اطمأن الى حديثها الحبيب ، كما لو كان في لمساته لحباتها يذكر لمسات الحبيبة الغائبة ((التائهة)) . لقد بحث عنها في كل مكان ولم يجدها .. ولقد كان من الحياة بين يديه الكثير ولكنه على بعادها يحزن ويأسف ، فحياته لا تكتمل الا بها تماما مثل المسبحة اذا انقطع خيطها وتناثرت حباتها .. ثم جمعت حباتها وعددتها فاذا هي تنقص حبة .. فهل يحيا جمالها الا بهذه الحبة الوحيدة الصغيرة .. التائهة !

وما كان اجمل حديث حبات المسبحة قبل ان ينقطع خيطها : حديثها الخافت ((عن الالفة بين القلوب في عالم الوحدة ، عن الطمأنينة في اللقاء المقسوم وان طال الغياب ، عن الوجل من الفراق المحتوم رغم اللقاء)) .

صوت غنائي شجي .. عجبا لماذا لم يعد يسمع مثله اليوم ؟ في هذا العالم الجامد المادي الذي ارتفعت فيه جلبة الالات وجللت سماؤه سحب المداخن .. لماذا لم نعد نسمع مثله .. ونحن في حاجة الى نغمته ومثاليته . حتى تخضر من جديد في اعماق القلب تلك الواحة المهجورة الضائعة ؟ اصوات طاغور وجيرالدي ونيقولائيدس وحقي .. لماذا لم نعد نسمعها من جديد ؟ لماذا لم يعد الشباب ذو القلب النابض بالعاطفة يعيد هذه التجربة الادبية ؟ اذا كان يحمد ليوسف الشاروني كتابه ((المساء الاخير)) (١٩٦٣) فهو عودته الى هذا النوع من الكتابة الادبية الذي لا يجدر ان يخلو منه ادبنا المعاصر .

القاهرة — نعيم عطية

منشورات دار الاداب
تطلب في دمشق من وكيل الدار
مكتبة النوري
شارع سنجقدار